ثوبان أسودان

ثوبان أسودان يلبسهما بعض الناس . فأما أولها فيلبسه آباؤنا الرهبان والقساوسة . وأما الآخر فيلبسه علماؤنا من أساتذة الجامعة . . . وهذان الثوبان يتشابهان فى الكثير من الصفات ، فى لونهما الأسود ، وفى بسطتهما وسدولها واتساع أكمامهما . . . لكن أقرب ما يجمعهما فى الحقيقة صفة متميزة غالبة ، فكلاهما يستبد بصاحبه حتى ليحيله فى بعض الأحيان إلى إنسان آخر !

وقد شاء القدر أن يرتدى صديقان من أصدقائى هذين الثوبين ويظهرا بهما بين الناس ، حين صار أحدهما قسيساً والآخر أستاذاً فى الجامعة . والحق أنى دهشت لهذا ، فقد كنت أظن أن كل شئ يجوز أن يقع إلا أن يكون صديقى فلان هذا قسيساً وصديقى علان ذاك أستاذاً . . . لكن هكذا حدث لنقول حين نرى هذا الصديق الأستاذ وهو فى ثوبه الجامعى إن الله سبحانه قد ملأ صدر هذا الرجل بالعلم فعكف عليه حتى اتخذه مهنة ، ولنقول حين نرى هذا الصديق القس إنه سبحانه وتعالى أنزل التقوى على هذه النفس فاتقت ، وأودعها الرضا فرضيت ! . . .

رأيت صديقى الأستاذ ورأيت صديقى القس فى ثوبيهما هذين الأسودين ، فابتسمت ثم تأملت وقلت : لشدّ ما يغالب كل منهما نفسه ويشدّ عليها ! أما أستاذنا فكما غرفته ليس فى طبعه وقار العلماء و إخلاصهم للعلم ، لكن وظيفته اضطرته إلى الوقار الذى يصطنعه العلماء و إلى البحث والتقصى كما يصنع العلماء، وهكذا رأيته بعد حقبة طويلة من الزمن فرقتنا . . . لم يكن فى طبعه الابتعاد كثيراً عن الناس، لكن مركزه قد ارتقى به بحيث أصبح يصطنع مايصطنع كبار الأساتذة الذين لا يختلطون كثيراً بالناس ، والذين تفرد لهم حجرات خاصة حتى لا يعكر الناس عليهم هدوءهم ويصرفوهم عن الاستغراق فى التفكير والتأمل فى

البحث ! لقد أصبح لايضحك إلا بقدر ، ولا يتحرك كذلك إلا بقدر ؛ لأنه دائماً مهموم بحياته العقلية . . . بل رأيته أقلم ملامحه — إن صحّ أن الملامح تؤقلم — لأن البيئة العلمية التى يشغل فيها مركزاً ممتازاً تحتاج إلى مثل هذه الملامح العلمية ، بحيث أصبح لايبدو للناس إلا مفكراً أو شبه مفكر . وأعجب من هذا وأكثر قسوةً عليه وعلى الناس أنه اضطر ليؤلف بعض الكتب لأنه بغير هذه الظاهرة العلمية لا يستطيع أن يكون أستاذاً فى مثل هذا المركز الممتاز ! والحق أنى أشفقت عليه حين رأيته يعكف على القراءة الكثيرة المتصلة ، ويضطر لتأليف كتابين طبعهما طبعة متقنة . . . وللعلماء لون خاص من ألوان العيش يصطنعونه فى حياتهم المنزلية ؛ فشدّ صاحبنا على نفسه فى اصطناع هذا اللون ، فملأ الجدران بالكتب ، وظل طول ليله يقلب فيها . أى مغالبة وأى إرهاق ! أعلم أنه يود لو كان هناك بدل هذه الكتب بعض الصور التى يهواها قلبه . . . أعلم أنه يود لو قضى ليله فيما تشتهيه نفسه ، لكن هذا الثوب الجامعى الأسود اللون مستبد به كل الاستبداد حين اضطره أن يبتعد كثيراً عن المجتمع ، وحين اضطره أن يقيد من حركاته ومن نزعات قلبه . . . بل لقد بلغ من استبداد هذا الثوب الجامعى الأسود أن كاد يحيل صاحبه إلى إنسان آخر غير هذا الانسان الذى فى نفسه وتحت قميصه ! . . .

قلت له حين رأيته : أراك صرت أستاذاً كبيراً ! . . . قال : نعم . قلت : أسعيد أنت بهذه المهنة ؟ قال : إنه مركز ممتاز يا صديقى . . . لكنى مع ذلك لا أكتمك شيئاً ، فان هذا الروب الجامعى على جلالته ورحابته قد أفسد علىّ الحياة ، وضيق على قلبى الخناق ! وأنت تعلم أن ظروف الحياة قد تدفع الانسان منا نحو غاية لا تشتهيها نفسه . . . وهل كنت تقدر أنت أو أقدر أنا أنى سأصبح أستاذاً فى الجامعة ؟ كل ما فى الأمر أن يداً ما دفعت كرة من الكرات نحو جهة ما ، فاندفعت هذه الكرة وصارت تتدحرج وتتدحرج ! . . . ولا بد أن ستقف هذه الكرة من نفسها أو بقوة خارجة عنها ، ستقف هذه الكرة يوماً ما أو ساعة ما ، غير أنى لا أعلم متى . . . أليس كذلك ياصديقى ؟ ألسنا فى الغالب نشغل وظائفنا فى الحياة مدفوعين بمؤثرات مختلفة ، فنسير أكثر ما نسير فى حياتنا بهذا القصور الذاتى ؟ قد تعرف أنى رجل لا صبر لى على هذا التحقيق العلمى الدقيق ، لكنى مع ذلك أحقق وأدقق . . . وقد تعلم أنه لا صبر لى على

هذه الحياة العلمية المنزلية بين هذه الكتب التى تطلق عليها المراجع ! لكنى مع ذلك ألفت هؤلاء الأصدقاء الثقلاء ، وفهمت قول المتنبى :

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدوًّا له ما من صداقته بُدّ

والذى يغيظنى حقا أنى لا أستطيع أن أقنع نفسى بترك هذا العمل إلى غيره ؛ لأن مركزه كما تعلم مركز ممتاز . . . وماذا تقول لو عرفت أن هذه الناحية العلمية التى برزت فيها يوماً ما والتى أقوم بتدريسها الآن فى الجامعة ، إن اتسع لها عقلى وأحبها ، فقد طالما ضاق بها قلبى وأراد الخلاص منها ! و إنى لأعلم أن قوماً آخرين من زملائى يشقون بمثل ما أشقى به لكنهم لا يتصارحون ! أرأيتنى وأنا أدخل الكلية ! أرأيتنى وأنا أضع هذا الروب على كتفى ! أرأيتنى كيف أتركه فى بعض الأحيان يتهدل على جسمى دون أن أظهر العناية به لأنه لا ينبغى لرجل العلم أن يعنى بغير الفكر ! لشد ما يزعجنى يا صديقى حين أعلم أن الحياة بالنسبة لى لم تعد إلا معهداً للتمحيص والدرس ! لكن الكرة لا تزال تجرى قوية سريعة ، وربما سبقت غيرها من الكرات ، لا لشئ إلا لأن طاقتها الذاتية المادية قوية ! ثم سكت صديقى الأستاذ كأنه لم يشأ أن يصارحنى بشئ أكثر من هذا .

فأما صديقى القس فثوبه هو الآخر ثوب فضفاض ، ولكنه فى الحقيقة يضيق على نفسه الخناق ! وما أكثر ما أشفقت عليه حين رأيته يصطنع من أجل هذا الثوب ما يصطنع ! . . . عرفته طروباً مرحاً يستخفه اللهو و يملك عليه أمره فى بعض الأحيان ، لكن حياته الدينية أصبحت لاتسمح له أن يأخذ من هذا الطرب أو هذا المرح بكثير أو قليل . . . رأيته يسير فى الطريق بتؤدة هادئة جدا ، وما كان يعرف التؤدة فى شئ . . . ورأيته يضع فى يده كتاباً صغيراً ، وكنت أراه يقبل على قراءة كثير من الكتب إلا هذا الكتاب الصغير الذى أصبح لا يفارق يده . . . ورأيت الزنار يلف خصره . . . فأما قسمات وجهه فقد أشفقت عليه حقا حين رأيته يروضها على هدوء يشبه الجمود ! أقسم أنه لا يحب هذا الثوب الأسود الكنسى الذى يعوقه عن الحركة الخفيفة السريعة ، والذى لا يقدمه للناس إلا فى صورة الرجل الزاهد فيما فى الدنيا من متاع وجمال ! وأستطيع أن أقسم أيضاً أنه ضيق الصدر بهذا الكتاب الصغير الذى لا يفارق

يده ! . . . وهذا الزنار الأبيض المتدلى من خصره ، فلقد كان يود من صميم قلبه أن لو كان ذراعاً ملساء بضّة ! نعم ، ما أكثر ما أُشفق على صديقى القس هذا حين اراه يفتح عينيه الوادعتين فيرى ماتهفو إليه نفسه ويخفق له قلبه ، لكنه يسارع فيغض من عينيه ؛ لأن هذا الثوب الأسود يرده إلى ما ينبغى أن يرد إليه ... لقد كان صديقى القس هذا يتحدث إلىَّ فى كل شئ إلا حديث الدين ، فها هو ذا لم يعد يرغب من الحديث إلا فيما يتصل بالدين ... أين تلك الحياة الفنية التى كان يحياها هذا الفتى قبل أن يصبح قسًّا ؟ أين لهوه وعبثه ! بل أين ذهب عنه شيطانه إن كان حقا ذهب !

قلت له : أتصدقنى ؟ قال : ماذا تريد ؟ قلت أسعيد أنت بهذه الحياة الدينية التى تحياها ؟ فنظر إلى نظرة وادعة هادئة وقال : نعم ! قلت ولكنى أعلم أنك كنت تفكر فى كل شئ إلا أن تكون عليك هذه المسوح . . . قال : ومن قال لك إن الانسان مخيّر ؟ قلت : أو ما يهفو قلبك حيناً إلى شئ مما كان يهفو إليه قديماً ؟

فابتسم صديقى القس وقال : دعنا من هذا . . .

محمد عبده عزام